

مي مظفر وبهجة الحياة والكتابة*

باهرة عبد اللطيف/ إسبانيا

إنجاز مي مظفر الأدبي والثقافي والإبداعي يتلخص في كونها صوتاً أنثوياً عبر عن فئة اجتماعية انتمت لها من خلال نصوص شعرية وقصصية ذات أفق حدائي. فقد ظهرت في زمن هيمنة سردية ذكورية في العراق مع قلة من الكاتبات (ديزي الأمير وعالية ممدوح وبثينة الناصري...) وعبرت عن الذات النسوية المستقلة الواعية، بعيداً عن هيمنة الضغط السياسي والأيدولوجي. غير أنها لم تكتف بهذا فهي ناقدة فنية وثقّت ذاكرة الفن العراقي الحديث، ووجداناً عراقياً مبدعاً حمل هموم المرأة والمجتمع والمنفى، وصاغها بلغة تجمع بين الشعرية والفكر والفن.

لذا لا بد لنا من الحديث عن مي مظفر الناقدة التي جعلت من الفن كتابةً ثانية للحياة.

في عالم النقد الفني، تبدو مي مظفر أشبه بعين ثالثة ترى ما وراء الألوان والخطوط، وتنفذ إلى الأعماق التي قد تغيب عن المتلقي العابر. لم تكن ناقدة بالمعنى الأكاديمي الجاف، بل شاعرة دخلت عالم الفن لتعيد كتابته بلغة القلب والحدس. في نصوصها، يمتزج التوثيق بالدفق الإنساني، والمعرفة بالإنصات العميق، حتى تتحول القراءة إلى رحلة في الألوان والخطوط والفراغات التي تحمل أسرار الروح. أسلوبها النقدي فريد، ينحاز للتأمل لا للصرامة، للحوار لا للأحكام، للبحث عن الجوهر الذي يتجاوز الشكل إلى المعنى. لغتها شاعرية، شفافة، تجعل من كل مقالة شهادة حب للفن وللفنّان، ومن كل دراسة جسراً بين القارئ وعوالم التشكيل. وأعمالها في النقد التشكيلي تُظهر تكاملاً بين اللغة البصرية واللغة النصية، لتؤسس ما يشبه "القصيدة اللوحة".

أما حين كتبت عن الفن العراقي الحديث، فقد جمعت بين التوثيق الدقيق والتحليل المتأنّي، مُقدِّمةً شهادة فنية وفلسفية في آن واحد. ويشهد كل من عرفها أو قرأ لها بكونها

ناقدة موضوعية، لكنها في الوقت نفسه متواضعة، تتردد أمام تجربة الفنانين خشية أن تخون اللغة عمق التجربة. وبهذا الشعور بالمسؤولية تحولت مي بعصاميته وجهدها إلى حارسٍ لذاكرة الفن العراقي المعاصر، موثقة وناطقة باسم جيل كامل عاش الحلم الجمالي برغم المحن، من خلال كتبها التي جاوزت الستة كتب ومحاضراتها وخبراتها في مجال الفن.

الوعي الثقافي بالمنفى:

لا بد لنا من التطرق إلى سيرتها الحياتية، إذ بعد مغادرتها العراق بفعل الحرب عاشت مي في عمان، لكنها لم تنقطع عن الإنتاج الأدبي والفكري فواصلت الكتابة والإنجاز. كتبت عن المنفى، عن الذاكرة، وعن الاغتراب بلغة تضج بالحنين والألم الإنساني.

كتابها "سيرة الماء والنار" يمثل ذروة هذا المزج بين السيرة الذاتية والوعي التاريخي والفني، إذ وثّقت حياتها مع الفنان رافع الناصري وسردت سيرة العراق الحديث كخلفية للسيرة الشخصية.

من هنا لم تكن مي مظفر يوماً بعيدة عن أوجاع العراق، بل كانت قلباً مفتوحاً لكل ما مرّ به أهله من حروب وحصارات ونزوح واغتراب. لكنها، على خلاف الصخب الإعلامي، اختارت أن تكتب عن هذه المصائب من خلال منظورها الإنساني، لذا تجد الألم يفيض في قصيدتها كجرح نازف، ويتحول النقد الفني إلى مساحة لتأمل مأساة الوطن وضياع ثرواته الإنسانية والفنية أيضاً، بخاصة في أعقاب الغزو الانغلوأمريكي على العراق وضياع كنوز، لا من اللقى الأثرية القديمة فحسب، بل من الأعمال الفنية المعاصرة التي اشتهر بها العراق رسماً ونحتاً، ولم تسلم دار مي مظفر ومخطوطاتها وأعمال زوجها الناصري من هذه المأساة.

مي مظفر: سيدة المدن وقلب الثقافة الكبير

من خلال كتاب مذكراتها الجميل، "سيرة الماء والنار"، نعرف أن مي مظفر جابت مدنا ووطدت صلاتٍ مع مثقفين في شتى مناحي الأدب والفن والثقافة، نساء ورجالا، من أنحاء العالم في أثناء عيشها وتجوّالها، ما بين بغداد وعمّان وأصيلة وباريس ولندن والمنامة وبرلين وأمستردام وبيروت وصنعاء ودمشق وفاس وأوسلو وستوكهولم.

في كل مدينة مرّت بها مي مظفر خلفت أثراً يُشبهها، رقيقاً، صامتاً، لكنه دافئ وعميق. مدن حملت في ذاكرة شوارعها ظلّ مثقفةٍ عراقية نبيلة، تعرف كيف تصغي للآخرين، وكيف تزرع الجمال حتى وهي تحمل في قلبها كل أوجاع الوطن.

عرفت مي كبار الأسماء في الأدب والفن العربي، جلست إلى جوار الشعراء والرسامين والمفكرين، تحدثت معهم كما تتحدث الصديقة الواقعة بذاتها، دون تكلف ولا استعراض. كانت قريبة من أسماء كبيرة ممن تهفو قلوبنا وعقولنا لهم، لكنها لم تُشعر أحداً يوماً بأنها "إحدى الكبار". كانت مي المتواضعة تفرح بلقاء باحث شاب يقصدها لتساعده أو فنان حقيقي مغمور كما تفرح بلقاء الأسماء اللامعة، تمد يدها للجميع وتفتح قلبها للجميع.

وفي غربتها الطويلة، لم تتغير. ظل كرمها العراقي حاضراً في كل دار سكنتها، في كل لقاء أدبي، في كل جلسة حوارية، دائماً هي المضيضة الأنيقة التي تهیی المكان للمحبة والصدقة والحديث، والإنسانة التي تعرف أن الثقافة ليست مجداً فردياً بل مساحة إنسانية يتقاسمها الجميع.

مي مظفر هي سيدة المدن حقاً، لكن سرها الذي يدركه الجميع، أنها ظلت في كل مكان عراقية أصيلة، قريبة من الناس، شفافة في حبها، باذخة في تواضعها، كريمة مع

من تعرف ومن لا تعرف. ولهذا بقيت في قلوب الجميع، ليس لأنها التقت الكبار، بل لأنها عاملت الجميع ككبار.

لا بد لي من القول أيضًا إن مي مظفر أديبة تكتب وتحيا خارج السرب!

فحياة مي مظفر وتنقلها بين البلدان وثقافتها متعددة المصادر وقراءاتها بلغات أخرى وتراجمها عن اللغة الإنجليزية جعلها نموذجاً غير مألوف في الثقافة المحلية العراقية والعربية. وكما يقال: "عداوة الصنف" بين الأدباء تقود للظلم أحياناً والإهمال المتعمد، وهذا ما تعرضت له طويلاً من قبل المؤسسات الثقافية الرسمية، لكنها ترفعت عنها بكبريائها التي هي سمة مميزة لها إنساناً ومثقفة.

عزيزتنا مي:

نقف اليوم أمامك، نحن أبناء الكلمة، نقولها لك الآن، بصوت واحد: شكرًا لأنك كنت وفية لوطنيتك وثقافتك العربية وانتمائك لكل قضايا العراق والبلاد العربية وفي المقدمة منها فلسطين، لأنك كنت واثقة من أن المثقف ليس بالضرورة هو من يعلو صوته في زمن الضجيج، بل هو من يصغي بعمق إلى نبض الفن والحياة. وقد كنت دائمًا هناك، تكتبين بصمت، وتحبين بصدق، وتواجهين الرداءة برقي لا يجيده إلا من جُبِلَ على العطاء النبيل. شكرًا لأنك حملت ذاكرة الفنان الكبير رافع الناصري كمن يحمل قلباً نابضاً، وأبقيت فيه حيًا، وجعلتنا نؤمن أن الوفاء فعل مقاومة للموت والغياب.

أنت بالنسبة لنا وجه أصيل من وجوه العراق الجميل، عراق الثقافة والجمال الحقيقي، عندما يكون المثقف شاعرًا وناقداً وحارساً لذاكرة الفن من غير أن يتوسل السلطة أو مؤسساتها.

وفي عالمٍ كثيرًا ما أراد للمرأة أن تختبئ وراء أقنعة القبول أو تتنازل عن أناقتها الفكرية والروحية لثُرَضي خطاباً ذكوريًا أو أيديولوجيًا، وقفت نموذجًا نادرًا للمرأة

العراقية القوية المستقلة التي تمارس حضورها الأنثوي الإنساني بكل ما فيه من قوة
ونعومة، من صلابة وجمال.

إن تكريم مي مظفر اليوم ليس تكريمًا لشاعرة أو قاصة أو مترجمة أو ناقدة
فحسب، بل لمتقفة عراقية حملت في قلبها الوطن بكل تناقضاته، وحولته إلى سرديات
وأشعار، وإلى جمالية إنسانية عابرة للحدود.

دمت عزيزتنا مي روحا نبيلًا وعقلا مبدعا كبيرا، وقلبًا يحتفظ بكل ما هو عراقي
وعربي وإنساني أصيل.

*كلمة ألقيتها في الندوة التكريمية الافتراضية التي نظمها المنتدى العالمي للغة العربية
للشاعرة والقاصة والمترجمة والناقدة الفنية مي مظفر، يوم 11 تموز/ يوليو 2025، والتي شارك
فيها الناقد الدكتور ضياء خضير الذي تناول تجربتها الشعرية بالنقد، والناقد الدكتور ثائر العذاري
الذي قدم عرضا نقديا حول تجربتها القصصية.

يمكن مشاهدة الندوة على الرابط:

<https://www.youtube.com/watch?v=RpR6Rxw0iKg&t=4178s>